

غَدُّ النُّخْبَةِ

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى ١٩٥٤

الطبعة الثانية مضمّنة ١٩٩١

الى فيثاغورس، أحدِ عِلْيَةِ العقول في كل الأزمنة، يُنسب القول : « سأخاطب الحكيم فأبعدوا الجهّال ». إذن منذ عهد باعدٍ في القدم، شعر سراةُ الفكر بان العامة حَظُرٌ على اصحاب التعاليم الرفيعة.

بيد ان تطوراً هاماً حصل. فبتنا اليوم وخطُرُ الجهّال على القيم الكبيرة نستغلُّه لخير تلك القيم، نشحذها عليه، نزيدها مضاء. وهكذا لم يتحفظ أينشتين في ركز كونه على نواميس تناقض الحس العام. ذلك لا لأن العامة — في أوروبا — ارتقت كثيراً عما كانت عليه عهد الاضطهادات،

بل لأنَّ النخبة تكوَّنت. تكونت فراحت تُشكِّل حول صاحب الرأي الجديد - مُحِقّاً كان أم مخطئاً - دِرعاً يقيه ثورة الخصوم: ثورتهم على شخصه فلا يُمسّ - وما ذلك. بشيء هام - وثورتهم على افكاره، فلا تُخنق في فمه - وهو هو الأمر الأساسي - بل تُوكَّل الى المِحَكِّ المختص وحده، يُتوجَّها او ينتقي منها ما صلح أو يدحضها جميعاً، مُمهِّداً لعمل النسيان يأتي عليها. لا لم يبق أحدٌ في عصرنا يخشى نقمة العامة. بشرط واحد:

ان تكون الخاصة موجودة.

* * *

أين نحن، في الشرق، من تكوُّن النخبة؟

قد يتبادر الى الذهن، رداً على هذا السؤال، أن في الشرق جامعات ومؤسسات تُمدِّن، إذن طائفة من الاساتذة وذوي الاختصاص، ممَّا يروح، بالنتيجة، يضمن وجود النخبة.

رأيي، أشدُّ خطراً على حلِّ مصاعب الشرق من عدم وجود النخبة. لانه يجعلنا نكف عن لَمِّ شتاتها أو إطلاعها من عدم.

ليست النخبة أفراداً أفذاذاً بما هم أفرادٌ أفذاذ، ولا طبقةٌ
مُثَقِّفِينَ بما هم طبقةٌ مُثَقِّفِينَ. انها جِسْمٌ حَيٌّ، ذو معرفة
وخلق في مستوى المصائر الكبيرة، واعٍ ذاته ودوره في
العالم.

كجسم، تتحرك النخبة وفق نوااميس تموت إن هي
تركتها تهزل أو تتضعع. وكجسم حَيٍّ، ما هي كآلة
تستقبل الوجود وانما كالانسان تقصد الوجود. وكذات
معرفة وخلق في مستوى المصائر الكبيرة، لا تجهل شيئاً
بلغه العقل في آية بقعة من بقاع الأرض، ولا تفتقر الى
شيمة تحلّي بها في آية رقعة من رقاع التمدن، من تلك
التي تدرع الناس في وجه الشرّ وإغراءات الشرّ. وكواعية
ذاتها ودورها في العالم، لا تتصرف تلقائياً او اندفاعاً في
تيار، وانما صدوراً عن إرادة وعن ادراك بأنها هي
المسؤولة، في النهاية، عن مستقبل الانسان في الارض
وربما في ما وراء الأرض.

قد يكون موجوداً في الشرق افراد مُتَحَلِّون بهذه
الصفات. ولكنّ عَدَمَ انتمائهم، بمثل التّجنُّد، الى جسم
النخبة والى ما تنتدب نفسها اليه، يَمْنَعُهُم من امتلاك صفتها،
فِيَقِيهِمْ أضعفَ جوهراً وأقلَّ فعالية.

هل يعني هذا ان النخبة حزب ؟
كلاً وحاشا أن تكون النخبةُ حزياً.

الحزب، تحديداً، عمَلٌ سياسي. اذن يتطلّب الحكم. والنخبة اكبرُ من تطلّب الحكم وأكبر من الحكم. تُسَلَّم زمام الحكم يظل مشوباً، ولو قليلاً، بشهوة السُلطة، والنخبة فوق الشهوة وفوق السُلطة. الحكم دولابٌ من دواليب تُشرف عليها النخبة، والنخبة المُلتفتُ الذي اليه تتحرك الدواليب. الحكمُ أسلوبٌ لتعهد الأمة او العالم، في صعوده جهة مصير عظيم، والنخبة هي هذا المصير العظيم.

هذا لا يعني أننا، شخصياً، من أعداء الأحزاب، ولكننا نضع الامور في نصابها. وبقينا ان اصطراع الاحزاب هو، في بعض المراحل، خير طريقةٍ لشفاء قوى الشعب المصابة، ريثما تضحُ فيها العافية.

الفرق كبير بين الحزب والنخبة.

قد يحارب الحزب، بلا هوادة، حزياً آخر، ليقوى ساعداً وينتصر ويتسلّم الحكم؛ وقد تشجع النخبة كل الاحزاب. الحزب ينفي سواه؛ النخبة تُلهم سواها.

علينا — والحالة هذه — أن نرحم حزباً قَوَّأه لم يتخلَّوا
عمَّا في نفوسهم من مناقب النخبة، استنكفوا عن
الطَّعن على خصمهم، اکتفوا بمهاجمة الشرِّ فيه، وعَفُّوا عن
شخصه. والجماهير — زبائنُ الأحزابِ الوُحْداءِ — لا تدكُّ
لك الا خصماً رحمتَ تجسَّم فيه الشرِّ. فإن كنتَ عادلاً
واعترفتَ بناحية خير في خصمك، ومن أجلها ترفُعتَ عن
مهاجمة شخصه، بقي الخصم في الساحة وانت ما تسلَّمتَ
الحكم. وهكذا تكون كحزب خنتَ طريقة الوصول،
ولكنك كنخبة وفيتَ بالعدل. وكراسم خطط عليه، أحياناً،
أن يعملَ من اجل البلوغ، سقطتَ ضحية ما بك من تعقُّل
نخبة لزام عليها ان تُنصف.

ولقد أدرك الشاعر — وغالباً ما يستبق حدسُ الشعراء
تطلعاتِ الفلاسفة — جدَّة الصراع بين المغامرة في التنفيذ
والتروِّي في معرفة الحق، فقال :

ولا بُدَّ لي من جهلةٍ لوصولها،
فهل من صديقٍ أُودِعَ العقلُ عندهُ ؟

* * *

والمجتمع ؟

إنَّ المجتمع، كمجتمع، واحدٌ تقريباً. واحدٌ في العالم كله. إن في انكلترا لصوصاً، كما في لبنان، وكذلك منافقين ومتاجرين بالافيون. اما ما يجعل المجتمعات تتباين، بعضٌ الى أوج وبعض الى حضيض، فهو ما يقوم فيها من نخبة، حولها تُستقَطَب القوى أو تتراخي. فلا يُعدُّ المجتمع اللبناني متأخراً لمجرد ما ان يقوم فيه متاجرون بالحشيش، يساهمون في تدمير مصر، بل يُعدُّ متأخراً ان كان لا يطلع نخبة نافذة الكلمة، تغضب مستهولةً عمل الاثيم وتمنع حصوله. ويُعدُّ متأخراً أكثر إن بقي تُجَّار الحشيش، من آن الى آن، يُصدِّرون الى الحكم نماذج منهم.

لا، ليس ضرورياً ان تتسلم النخبة باشخاصها الحكم. وانما من المحيي أن يتشرَّف الحكم بالجلوس الى مائدة النخبة.

فعلى تلك المائدة، وحدها، يُنقذ الحكم نفسه من نفسه، يُتَّقِي جَوْه من صغارة الزبائن، يرتفع الى المناخات العلى، يمدُّ ذاته بنبل العلم وبالفكر الكبيرة، ويعود غير متخوِّف من الافدام على تحقيق الجَلَل، على صنع التاريخ.

والاقدام على تحقيق الجلل وحده يخرس التذمّر، لأنه يَجْتَثُّ اسباب التذمّر؛ ووحده صُنِعُ التاريخ يهوّس وَيَغْمُرُ بالفرح، لانه يرفع الأعين اللصيقة بالتراب الى ملاعب الشمس.

* * *

كيف تكون النخبة؟

ككل جسم حي، تماشي النخبة سننَ النشوء. فهي، أوّل ما تبدو، خلايا قليلة في فراغ المجتمع. أرخبيلات في خضم. يؤلّف الخليّة الواحدة اثنان على الاقل من عليّة المثقفين ذوي الخُلُق، لا بما ان واحدهما عالي الثقافة ذو خلق، بل بما انه، على الاخص، أبعد شيء عن الأثرة والانكفاء على الذات، أميلُ الى التعارف فالمشاركة في النشاط العام، يزيد بهما نضجه ويمرّس بادرته بمواجهة الصعب. اكتشاف الافراد بعضهم بعضاً، والتلاقح الفكريّ والخُلقي فيما بينهم أساسيان. وتنمو الخلايا وتتكاثر حتى لتقل المسافات المباعدة بينها وتتنظّم في الخليّة الكبرى :

النخبة. يتمُّ عمل التلاقي هذا لا بمحض وعي ولا بمحض عفوية. فما هو احتشاد مُحزوزين ولا تراور ثرثارين. إن هو الا بعضٌ من نزوع الى لقاءٍ خَيْرٍ فيه تكثيفٌ للذات وتطلّع الى

فوق وَفَرَحَ خَلَاقٌ. وَالخَلِيقُ بِهَذَا التَّلَاقِي يُعْمَرُ بِمَرَحَلَةٍ مِنْ وَعِي
ذَاتِهِ وَاسْتِجَابَةِ نَدَاءِ دَاخِلِي يَشْدُوهُ إِلَى السَّوَى، ثُمَّ يَتَمَاسَّ
مَعَ السَّوَى بِكَادٍ لَا يَتِمُّ حَتَّى يَشْعُرَ هُوَ بِتَبَدُّلٍ لَهُ أَشْبَهَ
مَا يَكُونُ بِوِلَادَةِ جَدِيدَةٍ. وَتَكُونُ صِدَاقَةٌ أَحْلَى إِلَى قَلْبِهِ
وَاسْبِغَ عَلَى عَمَلِهِ مِنَ الْحُبِّ الْعَظِيمِ، لِأَنَّهَا تَنْطَوِي عَلَى
غَبْطَةِ الْحُبِّ وَتَتَرَفَعُ عَنْ غَيْرَتِهِ الْآكَلَةِ وَعَنْ أَنْوَاءِ بَحْرِهِ
الْمَتَقَلَّبِ.

الشعر لم يغنِ الصداقة كفافاً.

بهذا اقترب إثمًا وخسر وترأً ولا أرن.

وَإِنَّ الصِّدَاقَةَ إِلَّا الْعَاطِفَةَ الْأَوْفَرَ إِلَهَامًا لِلْمَتَتَجِينَ. إِنَّ
أُثْمِيَّتَ وَسَعَهَا بَيْنَ مُخْتَلَفِ أَفْرَادِ النَّخْبَةِ، مَدَّتَّهُمْ بِحَيَوِيَّةٍ
يُرْوِحُ صِدَاها يَرْجُحُ إِلَى أَمَدٍ غَيْرِ قَاصِرٍ. تَشْهَدُ جَدْوَى عَرَى
شَدَّتْ بِرِيكَلِيْسِ إِلَى نَخْبَةٍ مِنَ الْمَعْمَارِيِّينَ وَالنَّحَاتِيِّينَ، كَانَ
مِنْ نَتِيجَتِهَا بَقَاءُ رَقْعَةٍ مِنْ أَرْبَعَةِ كِيلُومِتْرَاتٍ مِنَ الْأَرْضِ
عَاصِمَةَ إِلَهَامٍ إِلَى الْأَبَدِ. وَتَشْهَدُ طَيِّبَةً أَلْفَتْ بَيْنَ قَلْبِي غَوْتِهِ
وَشَلْرٍ فَكَانَ مِنْهَا قَلَمَانِ قَلَّمَا أَطْلَعَ الْأَدَبُ أَطْرَفَ أَوْ أَعْمَقَ،
وَأَبْقَى عَلَى الدَّهْرِ.

وَعَمِّي الذَّاتِ وَالْإِسْتِجَابَةَ إِلَى النَّدَاءِ الدَّاخِلِيِّ هُمَا مِنْ عَمْرِ

النخبة عَهْدُ اليفاع. والصدافة عهدُ الشباب، بما فيه من طموح خَيْرِ باري. وفي عهد الرجولة، تحتاج النخبة الى مَنْ يتعهدا باحترام. إبان الشباب هي في غنى عن أي مدد، تكفي نفسها بنفسها. اندفاعاً حتى الطرب ولذة حتى الخدر. أمّا في عهد الرجولة فويل لمؤسسات تجنح عن الحذب على النخبة، وويل لحكم يتفرها أو يروّع. تنطوي النخبة عندئذ على نفسها فلا تلبث ان تيس حتى لتغدو متحف مومياءات؛ وهذا، وقد انقطع عن التماس بممثلي انتصارات التمدن وعن التلفت الى الغد الأفيح، يروح يشيخ والدنيا بعدُ شباب، فيتنكر له الناس بل يتنكر هو لنفسه، ويضطر، إبقاءً على حياته، إلى وقف عمله على الاهتمام بنفسه. حمار ناعورة هزل فعاد لا ينشل من الماء إلا ما ينقع عطشه.

عددٌ من حكومات الشرق وصل إلى هذه الحالة. فاذا الدكتاتوريات، على بشاعتها، المنفذ الوحيد.

النخبة وحدها تستطيع أن تؤمن لا تبادل الاحترام بين افرادها وحسب، بل تبادلته كذلك بينهم وبين كل مؤسسات المجتمع، ومنها الحكم. وشعور النخبة بحرمتها

هو كُلُّ حيويتهَا، جُماع عنفوانها، وهو السياج الذي يصون رجل العلم من إغراء المال يُلَوِّح به أرباب الأعمال، منزليه من طلاقة البحث العلمي الى محدودية العمل التكنولوجي. ذاك يُقدِّم له لذة الكشف للكشف ورضى الله والضمير، وهذا يُغرقه بالثروة والرفاه، صَنَمِي العصر اللذين اقتحما على البيوت صدارتها وعلي القلوب حرارة خفقانها. أولاً يخالج العالم بدايةً فنوط كلما رأى زوجة صاحب الحانوت تقفني في دارتها أحدث الرياش وأدوات الرفاه وتودع المصارف ثروة، بينما تخنق زوجها في صدرها شبه غصّة؟ لا، ووَخْدُهُ شعور النخبة بأنها النخبة وكفي يصون العلم من الاستخدام في المصنع، والشعر من التكسب، والفلسفة من كتابة المقالة اليومية، والبحث من التعيش في بيت غني، والتدريس من الالتحاق بالوظيفة، والقضاء من الانتساب الى مستشارية الشركات.

وبصدد هالة النخبة يمكن الالمام الى ما ينبغي أن تخصص به النخبة نفسها من ترفيه خليق بها. فالعمل العقلي المرهق يلزمه استجمام موائم، يرجع العقل منه الى مجهود جديد. فان لم تمنح النخبة نفسها هذه النزهة الرحيم، ان لم تكن لها أنديتها المتنفسة بالرفعة، اضطر أفرادها الى

انتجاع الراحة في ملاهي الطبقات الأخر حيث الأثر
مزدوج الاساءة: يُبدد جوّ النبيل ويزعزع ثقة العلية بعليتها.

ولعل تاج اعمال النخبة، كيما تتوطد ويبلغ عملها حد
العراقه، أن تتنادى بين فترة واخرى الى التمرس بعمل
ضحخم، يجيء في مستوى القضاء والقدر.

ان انتدابات الى الجلال قامت بها النخبة، في بعض
عهود التاريخ، أوجدت صيدون وآثينة وقرطاجة ورومة
وفلورنسة وباريس: الاولى فاتحة عالم ومصدرة عقل
وذوق، حتى لتأخذ الدنيا عن نظامها النوسو — ديمقراطي،
ويقصدها العظام يُحصلون على معلمها، وبنات الملوك
والسراة يروين فيها غلة الاناقة والجمال؛ والثانية حاضرة
فكر وفن تلهمها الناس الى الأبد، حتى لتتعبد الدنيا
لبضعة من الاصول هي المحارة التي تضطرب داخلها آلة
العقل؛ والثالثة أكبر ورشة لصناعة البطولة، بدأت بملكة
أحرقت نفسها ثباتاً على فكرة وانتهت بملكة أحرقت
نفسها ثباتاً على فكرة، حتى لقد أسس الانسان بين تينك
البادرتين أطول الامبراطوريات عمراً: عمر عالماً شاراً
نشاطه الخلاق على جميع البحار، مُوجداً في الاقتصاد

عدالة لا يزالون حتى اليوم يتشوفون الى مثلها، تاركاً في
الشجاعة سجلاً لسلسلة من المعارك تتلمذ لها قيصر
ونابوليون وبقيت، الى أمس، آخر ما قيل في فن ملاعبة
الموت؛ والرابعة أعمق مدرسة للعنف مع الذات، حتى لقد
مدّها قهرها لنفسها بما يلزمها من قوة لقهر الدنيا، فشدتها
بقرنيها في حقبة من عمر الزمن، وربطتها الى عجلتها، وما
زال قانونها، الى اليوم، اوثق ما يشد البشر الى الحق؛
والخامسة أشرف حلف عُقد في التاريخ بين رجال مال
ورجال فن، حتى لقد أُطلع من التحف في التصوير
والنحت والعمارة ما يُقدّر بنصف ثروة الجمال في الأرض،
وحتى لتروح أمة بأسرها تعيش على دخلها من حجّ الناس
له، على أنه تاج قارة طمعت بأن تكون ملكة القارات؛
والسادسة حكّم ذوق وعقل في الألف السنة التي حولنا،
حتى لعلّ ما تنطق به يحيا أو يموت نتاج العباقرة، وحتى
لتشكّل هي من دون سواها من العواصم وطناً ثانياً لكل
رجلٍ فكري.

هذا، والنخبة على الجملة مناخ.

فاذا لم يشعر المجتمع، جميعاً، من لاهوتيّه إلى
الجاهل، من القصر إلى الحانة، بأن هناك، في قمة هذا

المجتمع ولكن على مقربة من قلبه، طبقةً تنفس تنفساً بالشؤون العليا : كثافة الوجود، ترف الوجود، سُمُو الوجود، فقل حينئذٍ ان ذاك المجتمع شَبِحَ أو دُوِّلَ شرطية تُحكَم بالسوط، رقعة أرض من فقر وبدَاوة في لباس حضر معرّضة بين يوم وآخر الى الوقوع في أيدي شردمة من الطَّمَاع أو تُجَار النفوذ أو ما هو أوجع : مستعمرين ارتدوا بزة جديدة.

* * *

بعد هذه المحاولات المتفضبة في فقه النخبة وسنن تكونها، نورد طائفةً من معضلات الشرق المعاصر التي ستحدى نخبة الغد :

أولاً : معضلة تكون النخبة.

انها باب الأبواب. أول ما يتوجب عليها عمله. هو من النخبة كالمنهج من الفلسفة. فان لم يتوصل أفراد غير عاديين الى الانتظام في شبه حركة تتعهد الشؤون العليا، فعبثاً نتكلم عن نخبة وعن معضلات عظمى ستصدى لها النخبة.

ثانياً : معضلة اعادة الثقة بالعقل البشري.

إن الشرق المعاصر هو، من جهة، غير جاهل، ومن

جهة أخرى، غير كافٍ علمه. وهذا القدر من النور بين يديه يوقفه، كل يوم، على تناقض ظاهري في عمل نظم الفكر بالمجتمع وتدبير مستقبل الأرض، فيخلص إلى ان البشرية، بعد الستة آلاف سنة من أعمال العقل، لم تتوصل إلى حل مشاكلها. وإنما راحت تُعقدها زيادة، كل ربع قرن، بمجزرة عالمية. ومن هنا أزمة العقل مع نفسه: شكُّه بالعقل وبقدرة العقل على تعهد المصير البشري. أزمة، ان استمرت في الضمير الحديث، اعاقت دخول التمدن إلى الشرق. لأننا ما لم نستعيد الثقة بالعقل، آله الحقيقة وتقبل الوحي، فسنظل مضرين عن استعمالها على الوجه الأكمل، مكتفين من مواجهة مصاعبنا باللجوء إلى « روستات » من الخبرة البراغمية تفضي بالفرد حتماً إلى تطبيق شريعة الشكّاك: « إن لم تكن ذئباً .. »

ثالثاً: معضلة استعادة الكرامة البشرية.

إن قلة التعمق بالفكر، عند طبقة المثقفين العاديين، أوقفهم من المعرفة عند استنتاجات قشورية من علم الانثروبولوجية. فراحوا يرددون ان الانسان حيوان أو ضريب حيوان. والهالة التي حوله إنما اصطنعتها المعتقدات وان أي فرد هو كأبي فرد. وهكذا باتوا في موقف من يحذف

كلّ ما بناه الانسان، في الستة آلاف سنة الاخيرة، في باب تحقيق ذاته. موقفٌ بسببه قد يلتقون على صعيد واحد ورجل العصابة الذي يقيس الانسان بقدرته على تشغيل المسدّس. ومن هنا موجة اللامبالاة التي تغمر بعض مجتمعاتنا، من الاساس الى القمة، فتجعله يَقْتُل في عدم تحرُّج، يدهس معنويات باثّهام جراف، يُحطّم مستقبلاً بحكم يصدره بخفة، يُرغم نايغةً على الاستقالة لمجرد احتياجه الى منصبه، يُدمّر شهرةً للذة اعمال الحسد الكامن فيه. أعراضٌ كلّها لمرض تقلص كرامة الانسان في المجتمع الشرقي، أياً كانت الدرجات : من الحاكم الى القاضي إلى المتشرد.

رابعاً : معضلة التوفيق بين ضرورة الاكل من خبز الهيكل وواجب الحفاظ على خبز الهيكل.

معضلة ترقى في الشرق الى عهد داود. خلاصتها أنّ الحاكم أو أيّ متسلم عملٍ مفروضٍ فيه. من جهة، ان يعيش من مال المنصب، ومن جهة اخرى، ان يتعهد الانفاق على التزامات ذلك المنصب باشدّ وفّر ممكن. فكيف لا يقع في تجربة من اتخاذ القرارات التي توائم — عن بعد أو قرب — مصالحه الخاصة ؟ نصفُ الشلل في الآلة الحاكمة عندنا ناجمٌ عن هذه المعضلة. فبأيّ دُرّة

عبقريةٍ ستتوصل النخبة غداً الى تربية طبقة من الحكام
ورجال المناصب والاعمال، تمدُّ بهم الدولة ومختلف
مؤسسات المجتمع، ويكونون بشراً فوق البشر، حتى إذا
اصطدمت الخدمة والجيب آثروا مجدّ الخدمة على ورم
الجيب ؟

ولهذه المعضلة أثرها المباشر في جدوى حربنا مع
العدو. فإلى اي حدّ سيكون ساستنا في مثل هذه الحرب
مُدْرَعين ضد المال ؟ أمن المستبعد ان يُنزل عدونا
الى الساحة جيشاً من الدولارات ؟ لكم ينبغي أن يكون
داودنا متين الخُلُق، لكي يفضل الجوع، يومئذ، على أكل
خبز الهيكل الآتي ؟

خامساً : معضلة النزاع بين الله وقيصر

معضلة ذرّ قرنها في لبنان منذ تقدمت نقابة المحامين
بمشروع قانون لشؤون يعتبرها رجال الدين من ضمن
سلطتهم، ويعدها التشريع الحديث جزءاً من شموله. اية
روح عبقرية يجب أن تُلهم النخبة غداً لتطلع بين ممثلي الله
من مثل بولس جديد يعرف « ان الحرف يقتل » وممثلي
قيصر من يقترح قانوناً مطلق الجراءة — لا مُتَمَلِّمِلَهَا

وحسب — حتى تكون هذه الجراًة على الجميع هي هي
وسيلة الصمود والاقناع والظفر ؟

سادساً : معضلة التوفيق بين المواطنين الهادرتين في
ضمير الانسان الحديث : مواطنة الأمة ومواطنة العالم.
إذن لا تبقى الاولى أثراً وتطلّب عيشٍ عن طريق غزو
الغير، وبالتالي اعتبار البغضاء اساس بقاء، ولا تستمرّ الثانية
تهرباً من التزامات الانسان نحو الأقربين وذوبانا في كلامية
تُدَمِّر الثقة بما يرتسم على الافق من وحدة عالم.

ولهذا النضال شكّل آخر حاد في الضمير الشرقي، عند
جماعة المواطنة الاولى. فهم يتخذون أشبار الارض أساساً
لقياس وطنهم، فتطالب فئة منهم بتكبير من هذا النوع
واضح وتردّ فئة أخرى بتكبير يطغى على تكبيرهم، حتى
لتستمر كلتاها تضيّع على الشرق فرصة الجهر عالياً بأن
نصف مشاكله ناجم عن كونه اهتم، منذ فجر النهضة
السياسية، للضمّ اكثر منه للتكثيف، لتوحيد الاقاليم اكثر
منه للتمدين. ففاته الاثنان.

سابعاً : معضلة إحلال العلم محلّ الحسّ العام
باستثناء القلائل من عُشراء نظريات اينشتين والمقارناتِ

بين نواميس الكون الصغير والكون الكبير، نجد سواد المثقفين في الشرق ما زالوا يركزون مِحَكَّ العلم على الحس العام — منطق العاديين — غير مُدركين أنه قد ثبت، عقب انتصارات العلم الحديث، أنَّ الحس العام أكبر أعداء العلم، وأنَّ تقدّم المئة السنة الأخيرة لم يتمّ لولا تجرؤ العباقرة على ذلك الصنم، في دُرْبَة جديدة هي أجمل ما خضَّ حلقات المنهج منذ نيوتن، وأنَّ من القواعد الحديثة أن يشكَّ العالمُ — برغم من ديكارت، ولعلها تنمة لروح ديكارت — بكل حقيقة تبدو بديهية أو تنطبق على منطق العامة. لا على انها دائماً خطأ، بل على انها غالباً خطأ. مهمّة بين أدق واجراً ما ستضطلع به النخبة، والأبقيت الشقة وسبعة في الشرق لا بين الجاهل والعالم وحسب، بل بين المثقف والعالم كذلك.

ثامناً : معضلتنا الأخذ بلغة الحياة واعتماد تدوين علمي. إنهما بين اوجع ما سيحزّ في قلب النخبة، اذ محض اثاره الموضوع معضلة. بالنظر لما فيه من ملابسات التعاطف مع الوضع الراهن. ومع هذا فلا بد من العمل. وإلا خانت النخبة شرقها العظيم في تعيها عن فرض الحلول التي سبقتنا اليها اوروبة.

ان قضيّتي اللغة والحرف منفصلة إحداهما عن الأخرى.
وكُلُّ من حليهما يُغضب العاطفين. فهو كالعملية الجراحية
لا يشفي الا اذا أدمى.

معضلة اللغة عرضت وستعرض لكل الشعوب المتمدنة،
لأنّ اللغة، بطبيعتها، تخلق لنفسها هذه المعضلة كل نحو
من الف عام. اما مبدأ الحل فقد استُخرج من الحياة : اللغة
هي ما في الفم لا ما في الكتاب. ولو ان رقعة العالم
الغربي، على سعتها، من اسكوتلاندة إلى صقلية، مضافاً
إليها رومانية، بقيت مسaire عاطفيّة الشعب وما تنوهمه من
وحدة لغوية تربط بين أجزائه، لما كانت إيطالية وفرنسية
وانكلترة والمانية اليوم زعيمات العقل الغربي، ولما أطلعن
عبارة الشعر والفلسفة.

أما معضلة التدوين فقد عرضت وستعرض لكل اللغات
التي لا حروف فيها للحركة. كالشعوب السامية جميعاً.
وما حلّ مصطفى كمال بالحل الناجح، لمجرد انه لاتيني،
ولكنه أحد الحلول الموقفة لأن الحرف الذي انتقاه
ينطوي، خاصة، على الحروف المحرّكة. وإن لم يلجأ
الشرق إلى أبجدية مماثلة بقيت الانلغائية آفة جماهيره إلى

الأبد. إذ الطريقة التي ندون بها لغتنا مبدأها « تثقف فتقرأ »
لا « اقرأ فتثقف ». هذا لكي لا نذكر سوى هذه لحسنات
تدوين امثل.

معضتان على حلّهما في الشرق يتوقف إيجاد اللغة
التي هي حُوق كل المؤسسات. وما بقي الحقُ خرباً فعبثاً
نفكر. باقتناء العطور.

لا نهضة لنا في الشرق ما لم نحلّ معضلي اللغة التدوين.

بين العلم والعاطفة ستنشب حرب. وستكون مستعرة.
وما كان منها ليس شيئاً بالنسبة الى ما سيكون. كل ما
عندي ان اقف شجاعاً في جانب الحقيقة. ليس الشرق
عظيماً لأنه الشرق، انه عظيم بقدر ما سيكون خادماً
الحقيقة.

تاسعاً : معضلة تعهد المعرفة الشعبية.

ان ايجاد التفاهم الدائم بين العامة والخاصة لا يتم، بحال
من الأحوال، بانزال هذه الى مستوى تلك، بل برفع تلك
الى مستوى هذه. ان الدلعة الديمقراطية في العصر عوّدت
العامة شيئاً خَطِراً. خَطِراً حتى عليها. هو أن تساير
العامة الخاصة وتجاري ما تظن العامة انه خيرها. والعامة

لن تعرف خلاصها، الا اذا أُبقيت على اتصال دائم
بخلاصة اكتشافات الخاصة. لا ما يطبقه الصناعيون
تكنولوجياً من اكتشافات الخاصة، بل ما تبخه الخاصة
نفسها في دوائرها العليا من نواميس. نعم ليس بإمكان
العامة أن تفقه النواميس. ولكن بإمكانها ان تطلع على روح
النواميس. بإمكانها ان تدرك اتجاهها، بإمكانها أن تعيش في
مناخها الرفيع.

ولو عجزت النخبة غداً عن تقليل سعة الهاوية بين
الخاصة والعامة، ل جاءت النتيجة رابعة : استمر الحكم في
تدهور، لأن الحكم بطبيعته متأثرٌ بالعامة، ان لم نقل منبثق
منها؛ وأجبر، عندما يستيقظ الى الدرك الذي يكون قد
سقط فيه، على التبدل حُكماً فردياً؛ واصبح الجفاء بين
العلماء والشعب طلاقاً؛ وتوقف النتاج العلمي، اذ النتاج
العلمي منوط لا بفهم العامة له بل بحنو العامة عليه؛
واضطُرَّ رجالُ المعرفة إلى العمل من ضمن شهوة واحدة :
شهوة المأكل والملبس والمسكن، كأنما مشكلة المأكل
 والملبس والمسكن، هي نفسها، تُحلُّ بمحض معطياتها
هي لا من ضمن البحوث العلمية العليا.

عاشراً : معضلة القدرة على الطموح
إن الشرق المعاصر مزيجٌ من مقومات أربع : ماضٍ
جَلَل، ورقعة أرض معظمها صحراء، وطول عهد بالتغيب
عن التمَدن والتمدن، وانصعاقٍ بغرب بلغ من القوَّة، معنى
ومادة، حدًّا يجعل الفارق كبيراً بينه وبين سواه.

فإذا استثنينا النقطة الأولى وجدنا ان كل شيء في
مقوماتنا يثبُط العزائم.

ولقد عقَّد هذه الحالة وزاد المصير ادلهما ما أن تخلُّصنا
من الاستعمار استند، إلى حدِّ بعيد، على الكزيتوفوبية، أكثر
منه على وعي ضرورة الحرية. فإذا ابطال الاستقلالات
عندنا — باستثناء النادر منهم — كارهو غرب لا طالبو
حق. وإذا أمكن بعض بلداننا ان يتحرر من الاستعمار، لم
يعدّها « الأبطال » مرحلة صغيرة من مراحل المُضَيِّ قُدماً
في أنسنة الإنسان المشرقي، بل زادهم النصر الذي تحقَّق
ثقة بقيمة الكره للغرب — كأنما الكره يصلح ان يكون
مذهباً سياسياً — فتبادوا في تغذيته، مهولين — دعماً
لرأيهم — بخطر عودة الاستعمار بألف شكل غير الشكل
المسلح.

ولتصرفهم هذا سبيان :

الأول : ان عشق الحرّية عندهم لم يكن نتيجة درجة من الوعي متقدّمة تجعلك تدرك ان الحرّية والوجود البشري واحد.

الثاني ان الكره عاطفة ديمقراطية — إذا جاز التعبير — يمكن بثّها على أهون سبيل في مجموعة الشعب، وبالتالي تحريكها ساعة تستدعي ذلك شهوة الحكم عند عبّاد الحكم، بينما الحبّ والبناء عاطفتان صعبتان، لا تسميان إلّا في نفوس النخبة، تلك المتينة الخلق، القادرة على الترفع، العارفة ان لا دخول إلّا « من الباب الضيق ». والنخبة بطبيعتها قلّة. ولأنها قلّة، ولأنه يستحيل « استزلامها »، يؤثر عبّاد الحكم عدم التعاون معها.

وهكذا أبقى محترفو السياسة على شبح الاستعمار، بعد ذهاب الاستعمار، وسيلة سهلة تضمن بقاءهم هم.

واستمر شرقنا، في اجزائه المتحرّرة، يجترّ وضعاً كان قد انقضى. وبَدَل ان نتقل إلى مناخ البناء بقينا في روحية الخراب .

هذه الحالة. مضافةً الى ذلك المزيج الفقري الذي
يكون مقومات الشرق الأربع، بعثت في سواد الشرقيين ما
هو أفتك من الجمود : المحدودية.

فالجمود، متى يستيقظ إلى هوله الواعون، يصبح، بين
ليلة واخرى، عامل ثورة. أما المحدودية فذكاء رخيص
يجعلك تتطلب ولكن تطلب المتذمر، يريد العيش لا مجد
العيش. فيفوته حتى العيش.

لعل أفتك ما يضعف الشرق اليوم إ دعاء جناء المأمل
بأنهم هم الواقعيون، وتعريضهم بدوي الطموح الضخم.

لكم نحن في حاجة إلى من يحلمون الحلم كبيراً !

آفة الشرق اليوم أنه قليل الطموح.

ومن هنا انه يسهل مجيء الخاملين الى الحكم. فهم
خير من يمثل تدمره ومسكنته وحوائجه الصغيرة. خامل
يحكم خاملاً.

لن يوفر للشرق حتى أقل متطلباته إلا من سيتدب
الشرق إلى المتطلبات الكبيرة.

سيكون الشعار : ليتقدّم الصفوف من يقدر على
الطموح.

يتحدّى النخبة غداً معضلة تحطيم الاصنام لتحلّ محلها
الآلهة.

حادي عشر : معضلة العودة الى الله والى عدم عدمية
الانسان.

مُهَمَّةٌ أشرف ما سيواجه النخبة على الاطلاق. ففي
جزئها الأول، إعادة النظر في كل ما كتب وُبني ونُحت
وصوّر وأنشد وغُنّي وُبُحث وحُلّل واكتُشف وله رُكع وصُلّي
وعُبد على اسم الله. وفي جزئها الثاني، مواجهة جديدة
عصرية لأفلق سؤال يطرحه الانسان : أنا محدود البقاء ام
انا باقٍ الى الابد؟ اصحيح انني، انا الذي أنرت جانباً
كبيراً من ظلمات الوجود، بعقلي الكاشف المبدع، أنا
الذي أطلعت روائع الشعر والموسيقى والعمارة والرقص والفكر
جملةً، أنا الذي «شقت» شقماً آله العقل العجيبة حتى لقد
باتت تقدّم إليّ ما لم تكن هي نفسها تحلم به، أنا الذي جسّست
انظمة الكواكب، رزتها، دخلت الى قلع الدرّات، صافحت
سكّانها، خربتّها، أعدتُ تكوينها من جديد، انا، انا نفسي،

سيفرغ مني هذا الكون، وهو انما بات نصفه من صنع
يَدَيَّ ؟ اصحيح انه بَوحداتٍ من السنين (ستين، سبعين،
مئة وخمسين على الأكثر) يُقاس عُمرِي، أمَّا عُمر سائر الأشياء
الميتة الحقيرة فيقاس بالملايين ؟ ما قيمة الأرض، هذا
الكوكب الصغير، الذي تستغله يدي كُلَّ يوم، ويلعب به
عقلي ساعة يشاء ؟ ما عظمتُه نسبةً إلى عظمتي، حتى
لَيعيش، هو، إلى شبه أبد، وأزول انا بعد دورات للشمس
معدودات ؟

لا لا، وإنَّ سِرّاً خطيراً لا يزال ينتظر أن أفصحه، ودُرباً
في البحث غير التي استخدمها الآن تنتظر كشفي. انني في
التنقيب عن الحقائق اعتمد طُرُقاً إن هي — ساعة لا تكون
حواسِّي الخمس — الا امتداداتٍ لحواسِّي الخمس. وما
قيمة حواسِّ وامتداداتِ حواسِّ عجزت حتى عن شعيري
بدوران الارض تحتي، مع ان دوران الارض حقيقة يتداولها
الأولاد.

إذن قد يكون بقائي أو عدْمُهُ أهول من ان يكشفه شمْ
ولمس، بركازٌ ومسطرة، تجربةٌ في مُختبرٍ ومعادلةٌ
لاينشتين.

وإذا كانت العلوم والفلسفات لم تعطيني عنه براهين
من النوع الذي أطلب، فإن هناك استطلاعاتٍ أُخرى في
مستوى العجب يجب أن أقوم بها في صدد موضوع المواضيع
هذا. ولا بد اني سأخرج، غداً، من ذلك الانجاز، الذي
أنتدبُ اليه نفسي، وقد باتت بشرتي أكثف : قلبي أبصر
بمطارح الظلمات وعقلي أكثر استيعاباً لِنار الوجود.

إن ما حققته على الأرض أعظم، بما لا يحد، مما حققته
الأرض، فلا يعقل ان تكون طبيعتها أجودَ من طبيعتي ولا
أكثرَ أهليةً بقاء.

بلى بلى كما أني فقيرٌ إلى حاسةٍ أُخرى للتمكن من الشعور
بدوران الأرض تحتي، فأنا ولا شك فقيرٌ إلى عقلٍ آخر
للتمكن من اليقين بأنني باقٍ إلى الأبد.

وعندئذ — متى أدركتُ اني إلى هذا الحدِّ عظيم —
أفلا يخطر لي أن أتساءل : هذان الشيطان البيتا الجبروت «أنا»
الباقي إلى الأبد و «اللانهاية» التي تحيط بي، أكيد انهما ليسا
صنَعَ يدي، أفلا يلزم ان يكون هناك — ليُبدع اللانهاية
ويُدعني — مَنْ هو أعظم من اللانهاية وأبقى من البقاء؟

يا له موضوعٌ بحثٍ ينتظر النخبة، يكاد مجرد التصدي
له يدفعها قليلاً جهة الألوهة، لأنه أعظم موضوع، في أعظم
اطار، وأهل لأن يشغل أعظم العقول.